– يزعمون أنَّ العرب لم يدخلوا بلدًا — عنوَةً أو صُلحًا — إلا استرَقُّوا الرجال، واسْتَبَوُا النساء، وهتكوا الستور، واستولوا على النفائِس، وأذلُّوا السادة، واحتملوا كلَّ ما في البلد من قُوت وزاد، فلا يجد أهله ما يحفظ عليهم أرماقهم.

– وترانا كما يصِفُون يا إليون؟

– إنَّ العرب ما علمتُ لَأَهلُ وفاء وذِمَّة وشرف ودين.

– فماذا يرون إذن؟ وماذا ترى أنت؟

– أرى الثمرَة قد دانت وحان قِطافها، ولكنكم إن تدخلوا القسطنطينية بالقهر والغلبة لا تجدوا فيها من السلام والطمأنينة ما يحبِّب إليكم الإقامة، فهلَّا دخلتم أصدقاء قد أَمِنوا وأَمِنتم وطابوا نفوسًا وطِبتُم!

– وأين لنا ذلك؟

– أنْ تَحمِلوهم بَدِيًّا على اليقين بأن المدينة طوعُ أيديكم، فتتخفَّفُوا من هذا الزاد الذي جمعتموه رُكامًا بعضهُ فوق بعض يوهِمُ من يراه أنكم على نية إقامة طويلة عجزًا عن اقتحام المدينة، فإنهم إنْ رأوا هذا الزاد قد أُزيل عن موضعه أيقنوا أنكم قد أزمعتُم الاقتحام، فتخُور عزائمهم ويفتحون الأبواب.

وأخرى أيها الأمير: أنْ يكون تخفُّفكم من هذا الزاد بابًا إلى اكتساب مودَّتهِم واطمئنانهم إليكم، فتَهَبُوا لهم منه ما يدفع عنهم الجوع ويحفظ عليهم الرمق، فإنهم حقيقون بأن يحفظوا لكم هذه اليد فيشكروها لكم، فتدخلوا المدينة — حين تدخلونها — قد أَمِنوا وأَمِنتم، وطابت نفوسهم وطِبتم!

– وآمَرْتَهم على كلِّ ذلك يا إليون؟

– ووافقوني على كلِّ ما عرضتُ عليهم باسمك من شروط التسليم، وآية بيننا أن يُنبئهم أصحابُ الأخبار أنكم قد تخفَّفتُم من الأزواد أو جُدتُم عليهم ببعضها.

– لك ما اشترطتَ يا إليون، فاحمِل إليهم ما شئتَ ودَعْنِي وأصحابي نُعِدُّ العُدَّةَ للنقلة إلى ما وراء هذه الأسوار!